اسمعي يا مصر !

لفضيلة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

نائب معتمد دار العلوم بندوة العلماء بلكهنو بالهند

أحييك يا مصر بتحية السلام وأحيي فيك الزعامة للعالم العربي . الزعامة التي كانت عن جدارة واستحقاق ، لا عن احتكار واغتصاب ، وإنك تحلين اليوم في العالم العربي محل السمع والبصر ، ومحل العقل والفكر ، رضي به الناس أم لم يرضوا ، ولكن الواقع لا ينكر

أحيي فيك يا مصر نفاق سوق العلم ورواج بضاعة الأدب ، وتقدير رجال العلم والفن ، فقد أنجبتهم واحتضنتهم ودافعت عنهم ، وحدبت عليهم ، فهم أبناؤك البررة وأنت الأم الحنون

أحيي فيك الأزهر الشريف الذي كان ولا يزال المنهل المورود في الدين والعلم للعالم الإسلامي ، والذي لا يضارعه ولا يزاحمه في تقدم السن وطول العمر وامتداد الظل وكثرة الإنتاج معهد أو جامعة على وجه الأرض

أحيي فيك المكتبة العربية التي فاضت وامتدت كالنيل وأصدرت كتباً ومطبوعات عربية لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الأهرام أو أرفع

أحيي فيك غيرتك على اللغة العربية وجهادك في إحيائها ونشرها ورفع شأنها وتوسيعها حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك ، وبفضل الصحافة المصرية والحياة السياسية ، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر ، وبفضل المجمع اللغوي ؛ لغة راقية عصرية علمية سياسية فنية لا تقل في فزارة مادتها وقابليتها لتعليم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أي لغة من لغات الغرب

أحيي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين ، والفيلسوف الحكيم ، والمحدث اللبق ، والروائي المصور ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ، والشاعر المطبوع ، والسياسي المناقش ، والصحافي البارع ، إذا كتب أحدهم في موضوع ردد العالم العربي صداه ، وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج على منواله ، واحتجوا به كما يحتج بشعر القدماء

أحيي فيك يا مصر هذا وغير هذا ، ولكن لي معك اليوم شأناً آخر . إن لي معك كلاماً أرجو أن تلقي إليه سمعك وتشهديه قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ، ومن حسن الوفادة وتمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف والإقبال عليه بالسمع والقلب

إن مسئوليتك يا مصر أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، وما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوربية وفتات المدنية الغربية . إنك بين آسيا وأوربا فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين . إنك وسط بين مهد الإسلام ومشرق نوره ؛ وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية ، فعليك مسئولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين

فأما مسئولية آسيا والأقطار العربية فلا تخرجين منها يا مصر حتى تكوني قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربية تجارب أوربا وعلومها ونشاطها وكدحها في الحياة وجهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتك ووظيفتك لهذه البلاد العزيزة التي ترتبطين بها برابطة دينية وروحية وثقافية وسياسية

وأما مسئولية أوربا فلا تخرجين منها حتى تبلغي رسالة الجزيرة العربية — وهي الإسلام الذي احتضنته من زمان — إلى أوربا ، وحل المشاكل التي أعيت كبار المفكرين وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الأوربية التي استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات والمنتجات ، ونظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيماً جديداً ، وتحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك وتصدرين إليها أفضل مما صدرت إليك

إنك يا مصر قد بنيت القناطر الخيرية فانتظم الري وازدهرت الزراعة وأخصبت البلاد ؛ وأريد أن تبني قنطرة خيرية أخرى هي أكبر القناطر في العالم وأنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين ، وبين حضارتين لم تزالا متنافستين ، وبانفصالهما وتنافسهما شقي العصر الجديد ، فلو أنك وصلت بينهما وكنت قنطرة تتبادل بها القارتان خيراتهما ومحاسنهما ؛ وفرت على الإنسانية جهوداً وأوقاتاً كثيرة وصنتها من الضياع كما أن قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياهاً كثيرة ونظمت أمر الري

لقد كان حفر قنال السويس أكبر حادث فى التاريخ المصرى غير مجرى التاريخ وأحدث انقلابا فى السياسة والتجارة؛ ولكن من يستطيع أن ينكر أن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من السويس إلا عبودية واستعماراً . والعالم الآن فى حاجة إلى قنال آخر ، قنال التعارف الصحيح والتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يامصر ، القيام بهذه المهمة العظيمة لمكانك الجغرافى وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ومركزك الروحى . تعلمين أن دولة لا تتزن ميزانيتها ولا تتحسن أحوالها الاقتصادية إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد ، أو كان تصديرها أكثر من توريدها ، ولكننا فى الشرق نورد أكثر مما نصدر ، وكان السويس أكبر مطية من مطايا هذا التوريد ، فلا نريد قنطرة أو قنالا يكون معبر البضائع الأجنبية من أفكار وآراء وفلسفات وأخلاق إلى أعماق الشرق وأحشائه ، بل نريد قنالا يساوى بين التوريد والتصدير ، ويصدر أفضل ما عند الشرق الإسلامى من رسالة وعقيدة وخلق وعلم ، ويورد أحسن ما عند الغرب من منتجات ومصنوعات وتجارب واكتشافات ومرافق الحياة ، فكونى يا مصر ذلك القنال الأمين العادل الذى لا يسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل

إن لك يامصر يدين ، تأخذى من الغرب ما فاق فيه من علم وتجربة فالحكمة ضالة المؤمن ، ومدى إليه يدا أخرى ، يد المساعدة والكرم ، وجودى عليه بما أنعم الله عليك من نعمة الإيمان وشرف الإسلام فذلك الذى لا يملكه الغرب ولا يستغنى فيه عنك ، وقد انتهى به إفلاسه فيه إلى مازرين من فوضى وانحلال ، فتصدق عليه بهذا الإيمان ورسالة الروح ، ولا تنسى أبداً أن اليد العليا خير من اليد السفلى

كونى يا مصر رسول الإسلام إلى الغرب ، واحملى إليه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، تلك الرسالة التى حملها العرب إلى الأمة الرومية والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وأفاضت عليهما ثوباً قشيباً من الحياة ولوناً جديداً من النشاط ، وليس الغرب أقل حاجة إلى هذه الرسالة وهو فى دور التفكك وتنازع الموت والحياة من الأمة الرومية والفارسية إليها . وقديماً اختار الملوك وأصحاب الرسالة السماوية رسلا من عشيرتهم والأقربين إليهم ، ولك من إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم رحم ماسة وقرابة خاصة ليست لقطر من الأقطار الإسلامية بعد الجزيرة العربية

إن أوربا قد شاخت ونضجت كالفاكهة التى أدركت وضعف النضج عن حملها ، فاستمدى يا مصر الإسلامية لتحلى محلها فى الزعامة العالمية وقيادة الأمم ، وما ذلك بعزيز ولا بمستحيل ، إذا تم استمدادك الروحى والخلقى والمادى . وإذا كانت أوربا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للانسانية ولا دعوة مخلصة لأمم العالم وعندها كل ما يضعف ثقة العالم بها من وطنية وعنصرية وتقديس للنسل الآرى وإدلال باللون الأبيض ونزعة تجارية واستعمار ، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التى تضمن سعادة العالم كله ، ودين لا يفرق بين الأوطان والعناصر والألوان ؟

احرصى يا مصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم ، وسموا شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون أو يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على آثام الأعراض والأخلاق ، ويحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لترويج بضاعتهم ، وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة والصور العارية والأدب المكشوف ، فإياك يا مصر فى محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط وفى طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامى ، ولا تأتى الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة والثبات فى مزالق الإنسان ، والنجاح البارز فى امتحان العفة وطهارة الأخلاق ، واذكرى قصة يوسف التى مرت على أرضك ، ووقعت بين سمعك وبصرك ، كيف ثبت فى الامتحان وكيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة والاعتماد والسيادة والملك ، واقرأى إن شئت « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » ؟ بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وأنت فى ميدان القتال وساحة الجهاد فلابد أن تحفظى وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص وتذكرى ما قال لخلفائه فى أرضك « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم »

فكافحى يا مصر الوباء الخلقى الذى يقضى على حيوية الأمة أشد مما تكافحين وباء الكوليرا الذى يقضى على حياة بعض الأفراد ؛

وطاردى كل من يحاول أن يزعزع العقيدة فى شعبك ، ويزلزل الإيمان ويفسد الخلق ، أشد مما تطاردين من ينشر الوباء أو يسبب الأمراض أو ينقل إلى أرضك الكروب ، فلم نسمع أن الأمة الرومية العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء أو مرض ، وأن اليونان اجتاحهم مرض من الأمراض ، ولكنا قرأنا فى التاريخ وشهدت أنت أن هذه الأمم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقى والأمراض الاجتماعية ، فاحذرى يا مصر — صانك الله وحرسك — هذا المصير المؤلم

إن العالم العربى قد أحلك يا مصر من نفسه محلا رفيعاً ووضع ثقته فيك وفتح لك أذنيه وعينيه ، فاتقى الله يامصر فيمن ائتمنك ووثق بك فى نفسه وعقله ، ولا تصدرى إليه من أدبك ومطبوعاتك ما يرزأه فى إيمانه وأخلاقه وقوته المعنوية وروحه ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك أن تصدرى إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ولا تقبلين أن يصدرها إليك أحد ، وصدقينى يا مصر العزيزة أن هذه الروايات الخليعة والأدب الماجن أفسد وأضر للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة . انك زعيمة للعالم العربى فلا تغلبنك النزعة التجارية ولا تغرنك المنافع المؤقتة ، فلا يكون زعيما ولا يكون عظيما من يؤثر العاجل على الآجل ، والمنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية ، والأثرة على الإيثار

إنك يا مصر من أغنى بلاد الله ، ولست أعنى بالغنى خصب الأرض وكثرة الوارد ، وإنك لغنية فيها من غير شك ، ولكنى أعنى غناك فى المواد الخامة وهى الشعب الذى توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصاً ما يكمن منه فى أريافك ، فهى المناجم التى لا تزال مدفونة ، والمعادن التى لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قوى الإيمان قوى الشخصية ، قوى الجسم ، فلو أنك أحسنت تعليمه وتربيته وأفدت من هذا الإيمان ووضعته فى محله لكان حارسك الأمين وجندك القوى وثروتك العظيمة

قد اختار الله لك يا مصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد خامة هى القارة الإفريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته وفطرته ، ولا تزال فيها أمم على الجاهلية والوثنية ، وعلى الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها أمم كاللوح الصافى يكتب الإنسان فيه ما يشاء ، وهذه الأجزاء من القارة وهذه الأمم خير حقل لجهودك وتربيتك ، وخير أرض لزراعتك وغرسك ، فأرسلى إليها دعاتك المبشرين ورجالك المصلحين ، وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين ، يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرة من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتكتسبين قلوباً نقية وأرواحاً فتية وأجساماً قوية ، ويكون ذلك خيراً لك من هذه الأمم والدول الغربية التى تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها ، وهى لا تدوم على حال بل تجرى وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ؛ فيوماً هى معك ويوماً مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق ، وإنما هى المطامع والمصالح . وما أضعف الصداقة التى تقوم على المطامع والأغراض !

وأخيراً أريد أن أقول فى أذنك يامصر إن لله فى خلقه شؤونا وأنه أعظم غيرة من كل غيور وأنه لا يعطى نعمة دينه إلا من يعظمها ويجلها ويقدرها حق قدرها ، فإذا رأى منك استغناء عن الدين وما ينبئ عن احتقار لشأنه واستصغار لأمره وزهداً فى الإسلام ، وانصرافاً عن خدمته وتقصيراً فى أداء رسالته واعتزازاً لمبدإ غير الإسلام وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة والسلام استغنى عنك — على ما ترك السابقة وثروتك الضخمة ومدنيتك الفخمة — «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» وجاء لخدمة الإسلام وقيادة الأمم الإسلامية بأمة لم تخطر منك على بال تعتز بالدين وحده وتتشرف برسالة الإسلام وتتشبع بحب محمد عليه الصلاة والسلام وتلتهب غيرة دينية وحماسة إسلامية وتجاهد فى سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، وإن الله تعالى حذر العرب الأولين وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » وقال للمسلمين العرب « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ولله جنود السماوات والأرض ، وفى كنانة الإسلام سهام لم يرها أحد ولا تخرج إلا فى وقتها . ومن يدرى فلعل شمس الإسلام تطلع من الشرق وهذه أمم إسلامية فتية على سواحل المحيط الهندى وفى جزره تتحفز للوثوب وتتهيأ لقيادة العالم الإسلامى ، فاحتفظى يا مصر العربية بمكانتك ومجدك ولا تأمنى دورة الأيام ولا تأمنى